مراحل الثقافة وفى جو واحد من أجواء الأدب والمعرفة العامة ، وأما فى مصر «الجيل الماضى» فقد كان من أدبائها من درس فى باريس ونشأ على نشأة أهل الآستانة ، ومنهم من درس فى الجامع الأزهر ونشأ فى قرية من قرى الصعيد وكان منهم من شب فى حجر الحضارة ومنهم من شب فى قبيلة بادية كالقبائل التى كانت تجاور المدائن فى صدر الإسلام ، وكان منهم من أطلع على أعرق الأساليب العربية ، ومنهم من كانت لغته فى نظمه لغة الأحاديث اليومية لا تزيد عليها إلا قواعد الإعراب . . . الخ» .

وما نظن أن طه حسين قد قال عن البيئة وأثرها فى الأدب والأدباء ، أو درس بيئة أبى العلاء أكثر مما درس العقاد بيئة ابن الرومى وعصره . وكل ما هنالك لا يعدو اختلاف النسب فى الاعتماد على هذه الدراسة فى تفسير أو تعليل الانتاج الأدبى لهذا الشاعر أو ذاك . فالعقاد صاحب الفلسفة الفردية يعتمد على شخصية الأديب فى التفسير والتعليل أكثر مما يعتمد طه حسين صاحب المنهج التاريخى ، وكلاهما فيما نؤكد قد أصاب بعض الحق ولكنه لم يصب كل الحق ، فالبيئة والعصر والجنس أو العنصر لا يمكن أن تفسر وحدها الإنتاج الأدبى ، كما أن شخصية الأديب وطبعه ومزاجه لا تكفى أيضًا ، وإنما تصل إلى ما يقارب التفسير الصحيح عندما نحاول أن نتبين طريق تفاعل شخصية الشاعر أو الأديب مع بيئته وعصره فالأديب العصبى أو العاطفى ، أو ما شاء صديقنا الأستاذ الدروبى من نماذج وأنماط - لا يمكن أن يسلك فى أدبه مسلكًا عصبيًا أو عاطفيًا إلا إذا كان فى بيئته وعصره ما يثير عصبيته أو عاطفته .